

من أعلام التراث

أمية أبو الصلت بن عبد العزيز

الداني الأندلسي

نزيه الشوفي*

للشعر العربي ميزة يتفرد بها وهي أنه ذاكرة هذه الأمة ... أعان أهل العلوم والباحثين ، كلا في منجاء ، فوجدوا فيه ضالتهم ، وبالأخص علماء الآثار والتاريخ والأنثروبولوجيا والجغرافيا والألسنة والطب وما الى ذلك من علوم ..

الا أن جمع هذه الكنوز الأدبية والعلمية من تراث أمتنا ، لم يزل شاقاً وعسيراً ... وهي اذ تشكل الجانبين المادي والروحي للأمة العربية ، أي مدنيها وحضارتها ، فقد بقي أمر الكشف عنها موقوفاً على المصادفة أو الاهتمام الخاص وهذا قليل ان لم يكن ذا ندرة بالغة .. وخاصة في اطار الشعر بعد أن طغت بدعة الحداثة وموجة الشعر المنثور أو ما يسمى بالشعر الحديث والحر وغير ذلك من تسميات داخلية في نطاق هذه البدعة التي شغل أصحابها الناس بها دون أن يقدموا البديل ، أي لم يأت شعرهم مغنياً عن شعر أبي الطيب أو المعري ولا الشنفرى ، مثلاً .. بالإضافة الى ما وصلت اليه مساعيهم في أن وجهوا بنادقهم الى العربية تحت هذا الشعار غير النقي ، وغير البريء فمن مهيار الذي قلبوه « دمشقياً » الى لعبة المصطلح باسم الحضارة الغربية أو الثقافة المتغربة ، وهذا لا يعني التبعية الثقافية والأدبية فقط بل ومحاولة جهد متعددة للخطوط والتيارات والرؤوس لنسف التراث وبالتالي وسمه بالسلفي التخلفي ، الى اتهام الفكر العربي على أنه « فكر لا تاريخي » .. وكل هذه المظاهر تعني خطأ أو تياراً ورأساً ، حتى ان بعضهم طاش على شبر من ماء فدعا الى يوربانية خالصة أو « الى أوروبا بدون انتهاكات » أو أوروبا غير الاستعمارية ... وهذا لا يعني بطبيعة الحال أن كل ما يختزنه

التراث هو صالح أو ثر ، لكن ما نبحت عنه معينا وراشداً ايجابياً ، هو كثير ، وغني صالح لقراءة الماضي ، بعين الحاضر ، استشفافاً لمستقبل زاهر لأمتنا ، أو وثباً لغدٍ واع متكامل الثقافة مستكمل الرؤى التاريخية والمسارب الفكرية والأدبية أو المادية ... هذه ناحية .

والناحية الأخرى هي أن القيام بهذه المهمة غير السهلة ، هو نادر سواء من قبل المختصين أم من قبل دور النشر العربية ، التي من مهامها تقريب آثار الوطن ، مغرباً ومشرقاً ، بحيث اذا انوجدت محاولات للكشف عن كنوزنا الأدبية والعلمية في مغرب الوطن فانها لم تصل الى مشرقه الا ماندر ، والعكس بالعكس ... اضافة الى أن عدد دور النشر والمهتمين لم يزل قليلا ان لم نقل نادراً . ومن هذه المعطيات نقدم هذا البحث حول علم من أعلام تراثنا ، من المغرب العربي - الأندلسي قلما سمع به أبناء المشرق ، عدا قلة من المختصين ، لكنهم لم يذكروه في أعمالهم بل لم يشيروا اليه لا من قريب ولا من بعيد ، وخاصة الذين كتبوا على أشعار وحياة أمية بن أبي الصلت الثقفي ، ألا وهو أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الداني الأندلسي . الملقب بالحكيم ، لاشتغاله بالعلوم من طب وكيمياء وهندسة وحساب ، وموسيقى ، وماشابه ... ولم يظهر من أعماله العلمية الا واحد فقط هو « الرسالة المصرية » وقد حققت في القطر المصري وطبعت ... أما الأعمال الباقية فهي ما تزال في طي النسيان والاهمال رغم وجودها في عديد من دور المخطوطات العربية وأمام مرأى وأبصار روادها .

ونذكر هنا وبالعودة الى المراجع والتراجم والسير لمعظم مؤرخي وكتاب هذه الأمة (طيب الله ثراهم) سهل الأمر علينا ، اذ وجدنا أشعار أمية بن عبد العزيز الداني (أبي الصلت) وسيرته وذكر أعماله الأخرى موجودة لديهم (مثل العماد الأصفهاني ، وياقوت الحموي ، والمقريزي والمقري والذهبي والقفطلي والسيوطي والشابشتي والمقديشي والنويري ، وابن تغري بردي وأبي حيان التوحيدي ، وابن الأبار ، وابن دقماق ، وابن العماد وابن عمران وابن منظور وابن خلكان .. وكذلك لدى المحدثين من مثل عبد الله عنان وطوقان وضيف وزكي حسن ... الخ مما يسر لنا جمع أشعاره ، ونفض الغبار عنها ، في ديوان خاص بأبي الصلت أمية الداني الأندلسي .

ومن الممكن أن يكون أشقاؤنا في المغرب العربي قد كشفوا كنوز الأمة في الأندلس ، الا أنها لم تصل إلينا ، ولذا قمنا بتقديم هذا الأثر الأدبي الهام لأحد شعرائنا الأندلسيين في القرون الوسطى ، متوخين أن يضيف هذا العمل دليلاً آخر على نتاجات الأمة وتراثها الدفين ، ويحث المجتهدين لمتابعة المشوار لجمع شتات كل مرموق من تراثنا ، ويعين أبناء أمتنا في استقراء الماضي الروحي والمادي في حاضرها وهي ترنو الى مستقبل يرن صداه في العقول والأذهان .. والله نسأل سواء السبيل وتحقيق المرتجى ..

التعريف بأبي الصلت

هو أمية بن عبد العزيز الداني ، الأندلسي ، الملقب بأبي الصلت ، المولود عام ٤٦٠ هـ للهجرة، ١٠٦٨ للميلاد في دانية - قرب بلنسية الحالية ولم نعر على نسبه الأثنروبولوجي المفصل في المراجع التي ذكرنا أكثر من ذلك... كما أن أمية نفسه لم يفدنا عن نسبه بشيء، إذ لم يذكر في أشعاره سوى أمه ، في مرثيته لها . أما عن أبيه فليس له ذكر البتة ، والاحتمال الوارد هنا أن أبا الصلت لم يعرف أباه ، إذ يرجح أنه توفي مبكراً ، ولذا كان يصطحب والدته معه في حله وترحاله... ولما قضت نحبها رثاها بقصيدة مؤثرة ، لمكانتها الوجدانية في قلبه وتعلقه بها، وقد ذكر ذلك أصحاب التراجم المذكورة... فأورد ابن خلكان في مؤلفه : وفيات الأعيان فقال : « وجدت في مجموع لبعض المغاربة أن مولده بدانية في قران سنة ٤٦٠ هـ ، أي أنه ولد في فاتح محرم أو في موفى حجة وهو قران السنة بأخرى » (١) . أما المقرئ فقد ذكر بأنه « عاش عشرين سنة في أشبيلية » (٢) في الأندلس التي كانت محجاً للعمل والمعرفة في ذلك العصر ...

ويُجمع أصحاب التراجم على أنه انكب على التعلم ونبغ في شتى العلوم والآداب والفنون وهو في ريعان شبابه ، ثم ارتحل إلى مصر وهو في التاسعة والعشرين من عمره . فوجد المترجمون بهذا القادم من الأندلس نابغاً نابهاً في الفلسفة والطب والموسيقى وعلم الفلك (التنجيم) وفي الأدب (شعراً ونثراً) . ويقول ياقوت الحموي في معجم الأدباء : « كان أديباً فاضلاً حكيماً منجماً » (٣) - / ووصفه العماد الأصفهاني في خريدته بالقول : « كان واحد زمانه ، وأفضل أقرانه تبحراً في العلوم ، وأفضل فضائله انشاء المنثور والمنظوم ، وكان قدوة في علم الأوائل ، ذا منطق في المنطق بز سحبان بن وائل ... » (٤) / قسم المغرب - ج ١ - ١٨٩ / .

وعن علومه الطبية ذكر ابن أبي أصيبعة (الطبيب القداح) (٥) في كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » عن معارف أبي الصلت الداني فقال : « قد بلغ في صناعة الطب مبلغاً لم يصل إليه غيره من الأطباء ، وحمل من معرفة الأدب ما لم يدركه كثير من سائر الأدباء . وكان أواحد في العلم الرياضي ، متقناً لعلم الموسيقى وعمله ، جيد اللعب بالعود » (٦) وكذلك في علم النجوم والطبيعة والعلوم الدينية ، وكان فيها « كثير التصانيف بديع النظم » كما جاء على لسان السيوطي في حسن المحاضرة - ج ١ .

● عصر أمية أبي الصلت :

يشهد التاريخ بأن الأندلس زخرت في القرن الخامس الهجري بالعلم والمعرفة ، فانتشرت دور العلم والصنائع والمخترعات والفنون والآداب ، حتى قيل أنها بزت دمشق وبغداد في بعض العلوم . وقد انتشرت معارفها في جهات الغرب الأفرنجي ودليلنا أن ابن

رشد وما نقله من شرح على الشرح وتفسيرات للمعلم الأول أرسطو قد حولت فكر الغرب الذي نقل عنه آثار أرسطو .. مثلما ألهم ابن طفيل مفكري الغرب بالفكرة الطوبية (من طوبى لكم ، أو الخير لكم) ، وغيرها ، أي أن الأندلس بما زخرت به من معارف وعلوم وسائر جوانب الثقافة تجلت في القرنين الرابع والخامس للهجرة .. وفي ذلك العصر ولد أبو الصلت أمية وعاش وأبدع في الحساب والطب والهندسة والفلسفة فجلى ... مثلما برع في النظم والنحو وفقه اللغة واللاهوت ونقل الأخبار والحديث . وبرغم المشاحنات وروح الاستقلالية بالملك والاقبتال ، بين ملوك المقاطعات والدويلات المغاربية ، وما لاقاه البشر في تلك الآونة ، أي في نهاية الامبراطورية الثانية لبني العباس في الشرق ، فإن الوضع في المغرب العربي كان مختلفاً عما كان عليه في مشرق الوطن ، بحيث لم تكن العلوم والفنون وقفاً على السدنة من آل الحكم العباسيين ومن لف لفهم ، بل كانت متداولة بين الناس في الأندلس ولقيت كل التشجيع من ملوك الدويلات والطوائف . وبذا أصبحت الأندلس محجاً لكل قاصد للعلم وطالب للمعرفة وموئلاً للتفرغ للتأليف والبحث بسهولة ويسر .. وفي هذا الجو المعرفي تزود أمية أبو الصلت ونهل من المعارف ، فتعلم وأنتج ثمين الأعمال .

وقد زاول أمية بن عبد العزيز وهو يافع سائر المعارف المتاحة في ذلك العصر بعد أن تثقف على أيدي علماء مبدعين ، ذكرت التراجم منهم هشام بن أحمد بن هشام الكناني ، أبا الوليد ، المعروف بالوقشي ، / نسبة لـ « وقش » / من أعمال طليطلة ، وتعلم على أيدي أبي عمر الطلمنكي وأبي عمرو الصفاقسي (صاحب كتاب : نكت الكامل للمبرد) وغيرهما بالتاكيد ، إلا أن ابن بشكوان والزركلبي والعماد الأصفهاني ، والحموي لم يذكروا غير هذين المعلمين اللذين أمداه بالمعارف في العلوم والفنون والآداب التي ذهب فيها أمية كل عميق ومرموق .. وكان ذلك حتى عام ٤٨٩ هـ ، وهنا شد أمية الرحال الى مصر ، في يوم عيد الأضحى وأمه برفقته ، ويقول ابن خلكان أنه « نزل الاسكندرية في زمن الحاكم الفاطمي المستعلي بالله (٧) ، ومن بعده خلفه الأمر بأحكام الله » .

● أمية في بلاط مصر :

أخذ أبو الصلت الموسوعي ، الشاعر بالتقرب من أولي السلطة في مصر ، الذين وجدوا فيه مكنة لقضاء حاجتهم من المعارف والعلوم . وكان في طموحه التوصل الى حضرة وزير النظام الفاطمي القابض على مفاتيح الحكم ، بيديه : الأفضل الجمالي الأرمني الأصل ، والطامع بالحكم ، عن طريق أحد رجاله المسمى تاج المعالي .

فدخل في حاشيته فرحب به وقربه منه ، وقد مدحه أمية بقصائد عديدة ، كما أسدى له أمية خدمات جلى في الطب والفلك . ولم يكن بعد قد توصل الى الخليفة المستعلي بالله (أو خلفه الأمر) واكتفى بصحبة مستشار الأفضل تاج المعالي مختار الوزير ذي الصلاحية الواسعة . فبرزت شخصية الشاعر الأندلسي العالم ، وخدماته ، وجاء في معجم الأدباء لياقوت الحموي بأنه وصف تاج المعالي «وصفه بحضرة الأفضل وأثنى عليه وذكر ما سمعه

من أعيان هذا العلم وإجماعهم على تقدمه وتميزه عن كُتّاب وقته «(٨) . وبعدها قدمه تاج المعالي الى الوزير الأفضل ، الذي دهش به وبما يملكه من سعة اطلاع ومعرفة في الطب والفلسفة والفلك والهندسة والموسيقى وحسن المعشر والطوية . ويتابع ياقوت فيقول : « وكان كاتب الأفضل يومئذ رجلاً قد حمى هذا الباب ، ومنع من أن يمر بمجلسه ذكر أحد من أهل العلم والأدب الا أنه لم يتمكن من معارضة قول تاج المعالي فأغضى على قذى وأضرر لأبي الصلت المكروه »(٩) .

وفي حاشية تاج المعالي تعرف أمية بن عبد العزيز الداني الى رجال الدولة وأهل العلم . وكان يحضر مجالسهم ويأتس في أجواء لهوهم ، فساتن في أشعاره مع من حضر من أقرانه ، حتى سطع نجمه .. ووصف هذه المجالس ، وتغزل مع جلسائه من أولي الحكم ورجالهم ، بالنساء وبالعلماء ، مجارة لأهل الزمان في ذلك العصر .. وقد نقل الرواة أشعاره .. والتف حوله رهط من أهل الأدب والعلوم ، ونمت علاقات صداقة وشائج محبة مع عديد من هؤلاء الأقران والأصحاب ..

قلنا بأنه ذاعت شهرة أبي الصلت الوافد الى بلاط مصر ، فلفت اليه الأنظار ، أنظار الأصدقاء وكذلك الحساد والكارهين الذين حبكوا حبال الإيقاع به، وهذا ما حصل .

● أمية (في مصر) سجيناً :

تمكن الحاسدون ، والطامعون بالمناصب، منه اذ وجدوا في أبي الصلت منافساً لهم عليها ، وهم من الفئات الوصولية التي لاتقدر أهل العلوم ، ولا تدرك غير تأمين مصالحها، وتسلك أسوأ السبل لتنفيذ مآربها ، ولو أدت فعالها الى الطوفان .. فأوغروا صدر الأفضل على وزيره ، فذهب أمية ضحية غدرهم .. وتروى في ذلك روايتان ، تتفقان في النتيجة وهي : « سجن أمية أبي الصلت لثلاث سنوات وشهر ، وتقول الرواية الأولى ، على لسان ياقوت الحموي بأن الحساد كانوا يعملون لاسقاط تاج المعالي فأوغروا صدر الوزير الأفضل الجمالي على كاتبه تاج المعالي فاعتقله . ووجد كاتب الأفضل الخاص (وهو بمنزلة أمية) السبيل الى أبي الصلت بما اختلق له من المحال فحبسه الأفضل في سجن المعونة بمصر مدة ثلاث سنوات وشهر »(١٠) .

والرواية الأخرى ذكرها ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء فقال : « حدثني الشيخ سديد الدين المنطقي في القاهرة سنة اثنتين وثلاثين وستماية : أن أبا الصلت أمية ابن عبد العزيز ، كان سبب حبسه في الاسكندرية ، أن مركباً كان قد وصل اليها . وهو موفر بالنحاس فغرق قريباً منها . ولم تكن لهم حيلة في تخليصه منه لطول المسافة في عمق البحر . ففكر أبو الصلت في أمره وأجال النظر في هذا المعنى ، حتى تلخص له فيه رأي ، واجتمع بالأفضل ابن أمير الجيوش ملك الاسكندرية وأوجده أنه قادر ، ان تهياً له جميع ما يحتاج اليه من الآلات ، أن يرفع المركب من قعر البحر ، ويجعله على وجه الماء ، مع ما فيه من الثقل . فتمجب من قوله ، وفرح به ، وسأله أن يفعل ذلك .

وأتاه على جميع ما يطلبه من الآلات ، وغرم عليها جملة من المال ، ولما تهيات وضعها في مركب عظيم على موازنة المركب الذي قد غرق ، وأرسي إليه حبالا مبرومة من الأبرسيم ، وأمر قوماً لهم خبرة في البحر أن يفوصوا ، ويوثقوا ربط الحبال بالمركب الغارق ، وكان قد صنع آلات بأشكال هندسية لرفع الأثقال في المركب الذي هم فيه ، وأمر الجماعة بما يفعلونه في تلك الآلات ، ولم يزل شأنهم ذلك ، والحبال الأبرسيم ترتفع اليهم أولاً فأولاً ، وتنطوي على دواليب بين أيديهم ، حتى بان لهم المركب الذي كان قد غرق ، وارتفع الى قريب من سطح الماء ، ثم عند ذلك انقطعت حبال الأبرسيم ، وهبط المركب راجعاً الى قعر البحر . ولقد تطفأ أبو الصلت جداً فيما صنعه ، وفي التحليل الى رفع المركب ، الا أن القدر لم يساعده ، وحنق عليه الملك ، لما غرمه من الآلات . وكونها ضائعة ، وأمر بحبسه ، وأن يستوجب ذلك .. « (١١) » .

وهنا وجد الحساد الكارهون منفذاً للكيد وبث الأحقاد ضده ، فزينوا للملك بأن في قلب أمية شيئاً كافياً للثأر لأبي المالي الذي سجنه الجمالي ، فأدخل أبو الصلت السجن على أنه أحد رجال أبي المالي ..

وفي السجن كتب قصائد عديدة منها :

يا رب ذي حسدٍ قد زدته كمداً
اني رخصت ولم أنفق فلا عجب
وان حبست فخير الطير محتبس
وقال أيضاً :

اني لأشفق أن يراني حُسدي
أو معملاً لزجاجة يسعى بها
فلو ان عمري عمر نوح لم أبَلْ
الا مقيداً يدٍ ومرغم باغٍ
خنث الجفون مبلبل الأصداغ
فيه بمهلة عطلة وفراغٍ

ولما ضاق به المكان استنجد بصديق هو « علي الصيرفي » للوساطة وتخليصه من عتمة السجن ، وقال :

حييت من طلل برامة محول
اني سقيت من الخطوب سلافة
فاجذب بضبعي منقذي من هوة
عبثت به أيدي الصبا والشمال
جعل السقاة مزاجها من حنظل
أصبحت منها في الحضيض الأسفل (١٢)

وسجن أبو الصلت ثلاث سنوات وشهراً ، من نهاية عام ٥٠٢ ومطلع ٥٠٣ للهجرة . وقد ذكر ابن أبي أصيبعة ما جاء على لسان مراسله عن أبي الصلت وسجنه فقال : « وأما

ما أشار اليه من أن الذي مني به ، تمحيص أوزار سبقت ، وتنقيص ذنوب اتفقت ، فقد حاشاه الله من الدنيا ، وبرأه من الآثام والخطايا . بل ذاك اختبار لتوكله وثقته . وابتلاء لصبره (١٣) وسريته كما يبتلى المؤمنون الأتقياء ويمتحن الصالحون والأولياء . والله تعالى يديره بحسن تدبيره ، ويقضي له بما الحظ في تسهيله وتيسيره ، بكرمه . وقد اجتمعت بفلان فأعلمني أنه تحت وعد أداء الاجتهاد الى تحصيله واحرازه ، ووثق من المكارم الفائضة بالوفاء به وانجازه ، وأنه ينتظر فرصة في التذكاري ينتهزها ويغتنمها ، ويرتقب فرجة للخطاب يتولجها ويقتحمها . والله تعالى يعينه على ما يضر من ذلك وينويه ، ويوفقه فيما يحاول ويبغيه » (١٤) .

وفي السجن عكف أبو الصلت على الدراسة والبحث والتأليف فأضاف الى ديوانه أعمالاً جديدة هي :

● الأدوية المفردة في الطب :

على ترتيب الأعضاء المتشابهة الأجزاء والآلية وهو مختصر قد رتبه على أحسن ترتيب — على حد قول ابن أبي أصيبعة .

● رسائل العمل بالاصطرب :

● الوجيز في علم الهيئة :

وقد ذكر ابن خلكان في هذا الكتاب مايلي : « ان الأفضل قدم هذا الكتاب على منجمه أبي عبد الله الحلبي فلما وقف عليه قال : هذا الكتاب لا ينتفع به المبتدي ويستغني عنه المنتهي » (١٥) .

أما أعماله الأخرى فهي :

— الانتصار في الرد على علي بن رضوان وهو « علي بن رضوان بن جعفر المصري ، المتوفى سنة ٤٥٣ هـ ، وهو طبيب حكيم رياضي ، له مؤلفات في الطب والحكمة الرياضية . وكانت عنده « سفاة في البحث وتشنيع على منافسيه ويظهر ذلك في رده على حنين بن اسحاق في مسائله » (١٦) .

● تقويم الذهن في المنطق :

— حديقة الأدب (كما ويعرف بالحديقة) . وقد كتبه في المهديّة .
— الديباجة في مفاخر صنهجة : وهو تقرّيب لأمرأ صنهجة .
— ديوان الرسائل : وفيه جمع لرسائله .
— الرسالة المصرية : وهي محققة مطبوعة في مصر / ذكر فيها ما رآه في ديار مصر من هيئتها وآثارها ومن اجتمع بهم فيها من الأطباء والمنجمين والشعراء وغيرهم من أهل الأدب .

— كتاب الصيدلة :

— المِلحَ العصرية : وهو في شعراء الأندلس والطارئين عليها .

— رسالة في الموسيقى .

— كتاب في الهندسة .

وأخيراً: ديوان أمية أبي الصلت بن عبدالعزيز الداني الأندلسي .

وقبل الحديث عن الديوان لا بد من متابعة مسار حياة أبي الصلت . . فقبل سجنه مني أبو الصلت بمصاب جلل ألمّ به هو موت والدته .

موت والدّة أبي الصلت :

لقد توفيت والدته التي تعلق بها ، فجأة ، كما أشار الأصفهاني ، وكان بعض المنجمين قد حكم بذلك في مولدها واتفق قول المنجم اذ توفيت في الموعد الذي ذكره المنجم ، الا أن زمن موتها لم يذكر ، لكنه من المحتمل أنه حدث قبل سجنه لأنه لم يأت على ذكرها في رسائله التي استلهم فيها أصدقاءه للعمل على اطلاق سراحه . وقد جاءت مراثيه لها مطولة الا أن صاحب الخريدة لم يذكر منها سوى ثلاثة وعشرين بيتاً وبيتاً آخر مضمناً من معلقة زهير بن أبي سلمى . . وقد استلها كما يلي :

مدامعَ عيني استبدلي الدمعَ بالدم	ولا تسأمني أن يستهلّ وتسجمي
لحق بأن يبكي دماً جفن مقلتي	لأوجب من فارقت حقاً وأرزم
أخلاء صدقٍ بدد الدهر شملهم	فعاد سحياً منهم كل مبرم(١٧)
رزئت بأحفى الناس (بي) وأبرهم	وأكبرَ بفقد الأم رزءاً وأعظم
فأصبح در الشعر فيك منظماً	وأصبح در الدمع غير منظم
تصرم أيامي وأما تلهفي	فباقٍ على الأيام لم يتصرم
أنوح لتغريد الحماثم بالضحي	وأبكي للمع البارق المتبسّم
وأرسل طرفاً لا يراك فأنطوي	على كبدي حرّى وقلبٍ مكلم
وما أشتكي فقد الصباح لأنني	لفقدك في ليلٍ مدى الدهر مظلم
تطول ليالي العاشقين وانما	يطول عليك الليل مالم تهوّم
وما ليل من وارى التراب حبيبه	بأقصر من ليل المحب المتيم
فكم بين راج للأياب وآيسٍ	وأين جميلٌ في الأسى من متمم(١٨)

ولم يبق في الباقي حافظ خلة
فلمست ترى الا صديقاً لموسر
فجانبهم ما اسطعت واقبل نصيحتي
« ومن لم يصانع في أمور كثيرة
فعض واحداً ما عشت تنج وتسلم
حسونا لمجدود عدواً لمعدم
ومن لم يطع يوماً أذا النصح يندم
يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم » (١٩)

وبعد حادثة السجن ، وجد أمية أن لامندوحة عن الرحيل .

● رحيل أمية الى المهديّة بتونس :

بعد موت والدته ومحنته التي استبدت به ثلاث سنوات وشهراً ، ثم أخلي سبيله من سجن المعونة ، ذهب الى الاسكندرية حيث قضى بعض الوقت ، فلم ير تبديلاً مرضياً في أحواله ، وهنا قرر الرحيل الى المهديّة وفي سنة ٥٠٦ هـ بارح مصر قاصداً المهديّة الى بلاط يحيى بن تميم الصنهاجي الذي بارك وفادته ورحب به بعد أن ذاع صيته الذي أهله لدخول بلاط يحيى الصنهاجي حيث بقي يواصل ابداعاته العلمية والأدبية . كما أن الأمراء الصنهاجيين أوفدوه في سفارة للبلاط الفاطمي ، سنة ٥١٠ في محاولة منهم لاعادة العلاقات مع الفاطميين في مصر ، وكان من مهام هذا الوفد السفير بعث العلاقات التي انقطعت في عهد المعز الصنهاجي ، وبعثها ولده تميم .

● وفاة أمية أبي الصلت :

قضى أبو الصلت في بلاط المهديّة نيفاً وثلاثاً وعشرين سنة ، بين أمراء قدرُوا علمه ووضعوه في المنزلة التي يستحق ، وبعد أن اشتد عليه المرض وأدرك دنو الأجل كتب قصيدة يوصي فيها ابنه عبد العزيز (الذي حمل اسم جده) ذكر منها في الخريدة أربعة أبيات هي :

عبد العزيز خليفتي رب السماء عليك بعدي
أنا قد عهدت اليك ما تدريه فاحفظ فيه عهدي
ولئن عملت به فانك لا تزال حليف رشد
ولئن نكثت فقد ضللت وقد نصحتك حسب جهدي

وآخر قصائده هي هذه القصيدة ومنها :

سكنتك يا دار الفناء مصدقاً
وأعظم ما في الأمر أنني صائر
بأنني الى دار البقاء أصير
الى عادل في الحكم ليس يجور

فيا ليت شعري كيف القاه بعدها وزادي قليل والذنوب كثير
 فان أك مجزياً بذنبي فأنني بحر عذاب المذنبين جدير
 وان يك عفو ثم غني ورحمة فثم نعيم دائر وسرور

وقضى أحد شعراء الأندلس وهو في البلاط الصنهاجي بالمهدية التونسية مخلفاً أربعة عشر مؤلفاً ، عسى أن تلقى مسرباً إلى القراء العرب ، ومنها ديوانه ، موضوع بحثنا .

● ديوان أمية أبي الصلت :

ذكر الاصفهاني والحموي وابن أبي أصيبعة بأن أمية قد رتب ديوانه على حروف الهجاء العربي ، وهو ديوان كبير وقال صاحب الخريدة : « وقع ديوان هذا أبي الصلت في دمشق فأخذته وانتخبت منه ما أوردته ، ونبته على ما هو من روايتي في موضعه ، وكل شعره منقح ، ملقح ، معدح ، مستملح ، صحيح السبل ، محكم الحول ، نظيم المسلك ، قويم الفلك ، وذلك على ترتيب الحروف ، وقد قرأت في ديوان شعره بتاريخ سنة اثنتين وعشرين وخمسائة . ولا شك أنه عاش بعد ذلك » (٢٠) . وفي موضع آخر قال الاصفهاني بأنه « قرأ شعراً لأمية بعد ٥٢٢ نقلاً عن أبي الفتح نصر بن عبد الرحمن بن اسماعيل الفزاري في بغداد سنة ستين وخمسماية للهجرة » (٢١) ، وكان أبو الصلت قد توفي عام ٥٢٩ للهجرة .

وفي قراءة الديوان نلاحظ أن أمية قد سلك نهج الأوائل في قرض الشعر ، من مدح وهجاء وغزل ووصف ، كما استخدم في أشعاره مختلف بحور الشعر ، وبقي محتفظاً بطابعه الأندلسي . وان كان قد غلب الوصف على أشعاره في نهجه ، الا أن أشعار المدح طفت وهي لم تقل معنى ومبنى عن الوصفيات التي طوف بها على البشر والأشياء والجغرافيا ، حيث نجده أفرد قصائد في وصف النيل ، والهرمين ، والمرصد ، والقصور المصرية وحداثتها ، وكذلك في المهدية .

أما أشعاره الغزلية فقد جارى فيها أهل عصره ، في مصر ، حيث وجدناها موجهة الى النساء ، وإلى الفلمان وهذه من طبيعة أهل الحكم في مصر في ذلك العصر ، حيث تفشت هذه الفرائريات بين أفراد الحاكمين في بلاط الحكم في المرحلة الثانية للفاطمية أي منذ علي الظاهر وحتى نهاية الحكم الفاطمي ، وذلك لقيام الفئات غير العربية بالاضطلاع بشؤون الحكم والبلاط ، ولعل هذه الشهوات من موروث غير العرب . وكما كانت شائعة في البلاط الثاني العباسي ومفاتيحه غير عربية ، فقد تفشت في أصقاع أخرى من أنظمة الحكم المدارة بأيدي غير عربية وافدة . ومن هذه الاماعة ننتقل الى القول بأن شعر أبي الصلت في النساء والفلمان أيضاً قد ارتقى في صورته ومعماره الى أرفع مقام كآبي نواس وغيره ممن سلكوا هذا النمط من الغزل .

ونجد في كل قصائد الديوان ، غنائية شعرية متفردة ، ولوحات أو صوراً فنية مجلية .. وإذا عرفنا أن أبا الصلت كان متعمقاً في الموسيقى فإن قصائده في معظمها غنائية ، أو ربما كان يغنيها وهو لاعب العود المقتدر كما ذكرنا سابقاً .

وقد قلّت الرثائيات في الديوان ، ولعل أهمها مراثية والدته التي مر ذكرها ... وفي هذه الأشعار توجدات نفس تائقة صدمتها الفاجعة فبانت تباريح الروح المحتدمة .. وبالنسبة لبعض الأشعار الواردة عنده وعند غيره (معاً) فهي مشينة الضياع والتشتت .. فقد نسبت قصائد هي لأمية أبي الصلت الداني الى أمية بن أبي الصلت الثقفي ، وكذلك لشعراء آخرين نسبت الى أبي الصلت الداني ..

ومن قصائد الديوان :

فخل دمعك يسقي الربيع وهو دم	لا أحمد الجمع إلا حين ينسجم
فأصبحت وهي في الأرواح تحتكم	بيضاء فضلتها في الحسن خالقنا
سقيمة اللعظ لكن ما بها سقم	سكرى من الدل لكن ما بها سكر
بها الصبا حين روت ترابها الدائم	كروضة الحزن في راد الضحى خطرت
برق من الثغر يبدو حين تبتسم	ليست تزور وإن زارت لنم بها
بمغرب وغصون ضمها إضم	بانوا فأي بدور عنهم غربت
تلك البراقع يوم البين والثنم	وللظباء وأسد الغيل ما ضمنت
ولا تحركني الأوتار والنغم	فما تغيرني الأقداح دائرة
وأستجد له مجداً ويهتدم	مالي وللدهر أرضيه ويسخطني
كما تقلد نصل السيف منهزم	تقلدتنى لياليه مولية
فأصبح عن بصر العميان منكتم	إن يخف عن أهل دهري كنه منزلتي
فيه وتستقل الهامات والقمم	ولم يزل مرتقى الأقدام سامية

وقال في الشعر :

كيما توقى اللوم والطعنا	جرّد معاني الشعر إن رمته
فاللفظ جسم ووجه المعنى	ولا تراع اللفظ من دونها

وفي وصف ذي علم خانع قال :

لكنه في القبول جلمود	ورغب في العلوم مجتهد
أو مشتهي الأكل وهو معمود	فهو كذي عنة به شبق

وقال :

لما رأيت الناس قد أصبحت صدورهم بالغل مغشوشه
لزمت بيتي وتجنبتهم فصرت من أطيهم عيشه
وأخيراً ، هذا البيت من قصيدة في الفخر :
إني من القوم يخلو الموت عندهم دون الوقوف لمخلوق على باب

★ ★ ★

□ الحواشي :

- ١ - ج ١ - ص ١٠ .
- ٢ - نفح الطيب - ج ٢ - ص ٣٠٨ .
- ٣ - ج ٧ - ص ٢٠ .
- ٤ - وهو خطيب جاهلي ذاع صيته .
- ٥ - هو معين الدين بن العباس الخزرجي السعدي - الصلغني ، عاش في صلخد من أعمال جبل العرب ومات فيها عام ٦٥٨ هـ . ولم تزل آثاره باقية في هذه المدينة التي ضمت أعمال هذا العالم وغيره .
- ٦ - عيون الأنباء - ج ٣ - ص ٨٦ .
- ٧ - وحكم من ٤٨٨ - ٤٩٥ هـ .
- ٨ - ج ٧ - ص ٥٥ .
- ٩ - نفس المرجع السابق - ص ٥٦-٥٥ .
- ١٠ - معجم الأدباء - ج ٧ - ص ٥٧ .
- ١١ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء - ج ٣ - ص ٨٦-٨٧ .
- ١٢ - أي استعن بمساعدين . والضع هنا : ما بين الأبط إلى نصف العضد .
- ١٣ - الصير : منتهى الأمر وعاقبته .
- ١٤ - راجع : عيون الأنباء - ص ٥٠٣ لابن أبي أصيبعة - تحقيق د. نزار رضا .
- ١٥ - وفيات الأعيان - ج ١ - ص ٣٢٢ .
- ١٦ - ابن أبي أصيبعة - عيون الأنباء - وابن اسحاق هو : حنين بن اسحاق العبادي (١٩٤-٢٦٠ هـ) طبيب من نصارى الحيرة ، كان يعرف اليونانية والسريانية والفارسية . تفقه بالعربية على أبي الغليل ، تعلم في بغداد ثم انتقل إلى البصرة ، ثم برحها إلى الشام وبلاد الروم ، تجرع السم بعد أن حرّمته الكنيسة من الرحمة لدعوته إلى تعظيم التماثيل . راجع معجم الأعمال - ج ٤ - ص ٣٢٥ .
- ١٧ - السعيل : الخيط غير المقتول . وكل : بفتح الكاف ، أي الحدث والمصيبة .
- ١٨ - في الأصل ميثم ، تحريف ، والمقصود جميل بثينة بن معمر أشهر عشاق العرب ، ومثمم بن نويرة الذي اشتهر بمراثيه الباكية في أخيه مالك بن نويرة اليربوعي ، قتل في حروب الردة في عهد الخليفة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) .
- ١٩ - استماره من زهير .
- ٢٠ - الغريدة - قسم المغرب - ج ١ - ص ١٨٩ .
- ٢١ - راجع المرجع السابق - ج ١ - ص ١٨٩ .